اليسار وعاشوراء

مشهد بانورامي

عبد الحسين شعبان
بيروت

I

حين دعاني " المجمّع الثقافي الجعفري" للحديث عن "الإصلاح العاشورائي في خدمة الإنسان" وجدتها فرصة مناسبة للحديث عن التضحية والشجاعة في مواجهة الظلم، لحدث تاريخي رمزي كبير ظل العالم يستذكره باستلهام وأمل، فلم يكن استشهاد الإمام الحسين في العام 61 هجري في معركة الطف الشهيرة في كربلاء حادثاً عابراً، بل كان فاصلاً تاريخياً مهماً ظلّ استحضاره يتصاعد عاماً بعد عام حتى أصبح حدثاً كونياً بكل ما تعني هذه الكلمة من تحقق ومعنى ودلالة. والحق يُقال فقد تردّدت في الاستجابة للمشاركة، خشية من إقحام اسمي خارج نطاق اهتمامه واختصاصه وتوجهه الفكري والثقافي، وكي لا تذهب التفسيرات وربما الظنون إلى أن مثل هذه المساهمة تستهدف التقرّب أو التزلّف للتيار الديني السائد وتفريعاته ذات الأبعاد المذهبية، ولذلك اقترحت على الجهة المنظمة أن أتحدث عن تجارب ملموسة تحت عنوان "اليسار وعاشوراء" وهي جزء من مشهد بانورامي لعاشوراء في النجف في الخمسينات التي عشتها، ودور اليسار والحركة الشيوعية في إحياء مناسبة استشهاد الإمام الحسين ، حيث لم يكن هناك وجود لأحزاب الحركة الإسلامية، كما ظهر لاحقاً، وخصوصاً بعد ثورة 14 تموز (يوليو) العام 1958. ولكنني وضعت كل ذلك جانباً لأقدّم صورة حيّة من قلب المشهد وهي شهادة تاريخية حيّة لا علاقة لها بما يجري من اصطفافات سياسية، وذلك بحكم نشأتي في بيئة دينية لا أتنصل عنها ولا أتكبر عليها أو أستخف بها، بل كنت ولا أزال أحترمها وأعتز بها كجزء أصيل من تكويني الثقافي والمجتمعي، مثلما ترعرعت في عائلة يسارية وذلك جزء لا يتجزأ من روافدي الروحية، وهو أمر لا أخفيه وكنت قد قلت في وقت سابق أن أهم ينابيع التكوين الأولى كان القرآن الكريم وماركس والأدب بشكل عام والشعر بشكل خاص، حيث كبرنا مع الجواهري. ومع ذلك فقد كان ينمو معي الفكر النقدي للتيار الديني واليساري معاً، وهو ما انعكس على كتاباتي منذ أكثر من 3عقود من الزمان، على الرغم من أنني من دعاة تقاربهما مثلما هي دعوتي للتقارب مع التيار العروبي، كجزء من الخبرة والدرس التاريخي، وهو درس لا غنى عنه بتقديري ، لاسيّما الاعتراف بالآخر. وفي مطالعة لي قبل أكثر من عقدين من الزمان عن السيد محمد باقر الصدر (نشرت في صحيفة المنبر التي كان يصدرها السيد حسين الصدر في لندن) جئت على أهمية التفاهم بين التيارين وما سبّبه صراعهما من تأثير سلبي على كل منهما، سواء على الصعيد الفكري أو العملي، والشيء بالشيء يذكر فقد كان الصراع الذي نشب بين التيارين اليساري والعروبي أشد قسوة وعبثية ولا معنى له وقد دفعت جميع الأطراف ثمنه باهظاً .

II

ومن وحي المناسبة الجليلة ابتدأت حديثي ببعض الخواطر والاستذكارات ، وحاولت أن استفزّ الذاكرة لتخرج من زواياها حتى وإن كانت مبعثرة أو متناثرة، للذهاب إلى عبق تلك الأجواء بطقوسها الاحتفالية المهيبة، وفي محفل استذكاري، حرص المشاركون فيه على مساهمتي، على الرغم من أنني أشرت في بداية حديثي بالقول " لا يُفتى ومالك في المدينة"، لكن المشهد البانورامي الذي قدمته بحضور متميّز لبناني وعربي، مسلم ومسيحي ودرزي ومن طوائف مختلفة، كان مؤثراً كما فهمت ولاحظت. وحينما نتحدّث عن المأساة الإنسانية للإمام الحسين الذي خرج في مواجهة الظلم خصوصاً قوله الأثير "إني لم أخرج أشراً، ولا بطراً ولا مفسداً، ولا ظالماً، وإنما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي" فإنما نقصد استعادة (الحدث) بالتحقق : كيف وأين؟ واستحضار التاريخ (بامتلاء السردية بمعناها الإنساني)، فإنما لتأكيد حضور المعنى (لماذا نحن نحتفل وما هي رمزية مثل هذا الحدث ؟) وذلك للوقوف عند الدلالة ، فما هي العبر والدروس من ذكرى استشهاد الإمام الحسين.؟ ولعلّ ذلك ما كان يقصده اليسار حين يواجه الظلم ويتصدى للظالمين، أي أنه يستغل إيجابياً هذا الحدث كجزء من فضاء شعبي للتحريض والتعبئة خارج دائرة الدين أو التديّن وخارج التفريع الطائفي أو المذهبي، فذلك لم يكن يعنيه لا من قريب ولا بعيد، بل كان واضحاً في رفع شعاراته الوطنية وسط حشود شعبية تستلهم مسيرة الإمام الحسين وكفاحه البطولي في مقاومة الظلم وعدم الرضوخ للظالم كجزء من عقيدتها الإيمانية. والمسألة بقدر ما هي يقينية إيمانية عقائدية لدى البعض، فإنها وجدانية وواقعية ضد الظلم لدى اليسار الذي كان آنذاك يحسن استخدامها بدقة واقتدار كجزء من توجهه التحريضي التنويري، مع أن خيطاً رفيعاً فاصلاً بين اليقين الديني الإيماني وبين التوجه المدني اليساري في توجيه الأنظار صوب الظلم، وكان فيدل كاسترو في حواره مع القس بيتو في العام 1986قد طرح المشتركات بين الكنيسة والماركسية على أساس الكفاح الدنيوي لتحقيق العدالة والمساواة بين البشر، لكن الأمر لا يخلو من حيرة وهذه الأخيرة تعبير عن سؤال قلق وأداء وخشية من الاستثمار لغير صالح التوجه الإنساني، لأنها تطرح أسئلة تتعلق بالفلسفة وهذه تولد أسئلة جديدة، خصوصاً وأن للشهادة والتضحية بالنفس بطولة وشجاعة رمزية ونبلاً وحميمية لا تتعلق بالزمان ولا بالمكان، بل تتجاوز ذلك إلى الفضاء الإنساني، وحسب ابن عربي فـ"الزمان مكان سائل والمكان زمان متجمّد". كثيرون يحتفلون بهذه المناسبة ، بعضهم عن إيمان، ولكن الإيمان بدون العقل يقود إلى يقينية صماء وسيكون متعصباً ومتطرفاً وحتى عنيفاً وقد يصل إلى الإرهاب ، ولنتوقف عند بعض الممارسات التي لا علاقة لها بالمناسبة ولا علاقة لها بالدين والمذهب، وهي كثيرة لدرجة أصبحت من الطقوس المسكوت عنها، حتى وإن كان بعض علماء الدين لا يقرّونها، لكنهم لا يواجهون العامة بها، بل يعبرون عنها بطريقتهم الخاصة الأقرب إلى الهمس والموارية منه إلى الإفصاح والإعلان . والبعض الآخر يحتفي بالمناسبة انطلاقاً من تقليد طقوسي ديني أو حتى اجتماعي متوارث، وبالطبع فهناك فارق كبير بين الإيمان والعادة أي ما استقر عليه من تواتر الاستعمال وكثرة الاستخدام، والفارق يتعلق بالمدخلات، فحتى الإيمان سيكون مختلفاً بين شخص وآخر، فهناك إيمان واعي وآخر أعمى، مثلما يتعلق بالمخرجات من حيث التوجه والأداء وما يترتب عليه سواء بالإيمان أو التقليد.

III

شخصياً ما يهمني من هذه المناسبة هو القيم والمثل الإنسانية ، فشجاعة الإمام الحسين حين يواجه الظالم إنما هي "فضيلة من فضائل القلب"، والشجاعة كرم أخلاقي وسموّ إنساني، وهي عكس الجبن والخنوع وشحّ الأخلاق، لأن الشجاعة تتعلّق بالخير، والسياسة بهذا المعنى هي " فعل خير"، أما الجبن والخنوع بما فيه من غدر وخسّة، فهو "فعل شر" ولا علاقة له بالسياسة، والشرير ليس شجاعاً في حين أن الشجاع خيرٌ. والإيمان دون ضمير سيكون كاذباً ومشوّهاً، لا يمت إلى جوهر الدين وقيمه ، بل سيكون تعبيراً عن مصالح خاصة أو حزبوية طائفية لضيق أفق واستعداد لإلغاء الآخر أو إقصائه أو تهميشه، وهكذا يكون الفرق كبيراً بين العارف وغير العارف والمؤمن الحقيقي والمؤمن المزيّف، مثلما هو الفرق كبير أيضاً بين العالم والجاهل و"هل يستوي الذينَ يعلمون والذين لا يعلمون" (القرآن الكريم، سورة الزمر– الآية 9).

يقول ابن عربي

"أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تراه، فإنه يراك". وهكذا يختلف الإيمان الواعي عن الإيمان المتخلّف، وكان الإمام جعفر الصادق يعبّر عن جوهر الدين وقيمه السمحاء حين يقول " وما الدين سوى الحب"، ففيه يكشف نور القلب وصدق السريرة. ولذلك حين نتحدث عن الإيمان ، فماذا نقصد وأي مؤمن نعني: لأن المؤمن دون وعي سيكون منقاداً وخاضعاً ومسخّراً وقد يرتكب أفحش الأعمال، فيحمل سكيناً ليطعن أقرب إنسان إليه أو كاتم صوت ليطلق النار عليه أو يلبس حزاماً ناسفاً ليفجّر متجراً أو مدرسة أو مستشفى أو يسرق من المال العام أو الخاص سواء باسم الدين أو تحت غطائه، لا يهمّه من الدين سوى المظاهر، سواءً أطال لحيته أو لبس العمامة أو انتسب إلى هذا الحزب أو هذه الجماعة إن كان رجلاً أو ارتدى النقاب أو الحجاب إن كانت امرأة، وهؤلاء كانوا المادة الخام، وخصوصاً من الشباب والشابات للتنظيمات الإرهابية مثل "القاعدة" وربيبتها "داعش" والجماعات المسلحة بمختلف تسمياتها خارج القانون، فإيمانها يختلف عن إيمان الروحانيات وإسلام القيم الإنسانية وروح التسامح والسلام ومحبة الآخر وإيمان العدل والمساواة الذي خاطب فيه الإمام علي عامله في مصر مالك بن الاشتر النخعي بقوله: لا تكن عليهم (أي على الناس) سبعاً ضارياً لتأكلهم " فالناس صنفان أما أخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق" .

IV

لعلّ هدف الأديان جميعها والإسلام تحديداً والإمام الحسين بشكل خاص هو الإنسان لأنه القيمة العليا والحقيقة الأهم التي استخلفها الله على الأرض، وهو ما يعطي البشر المؤمنين الحقيقيين الكشف والفيض والإلهام، فهناك علاقة للخير بالإيمان، فهل يمكن أن يكون السفاح والجلاد شجاعاً أم أن الشجاعة صفة لصيقة بالخير؟ الحسين لا يخص الشيعة وحدهم ولا يعني المسلمين فقط ولا يقتصر على المؤمنين، وإنما هو قيمة إنسانية لبني البشر، للناس جميعاً، لكل من يناضل ضد الظلم ومن أجل إحقاق الحق، وفلسفته التي تقوم على مقاومة الظلم تعني جميع المظلومين وفي جميع العصور، فهناك علاقة بين الظاهر والباطن والعلّة والمعلول والسبب والنتيجة والماضي والحاضر، وكل فعل تضحية ومقاومة ضد الظلم إنما هي استلهام لسيرة معطّرة مصحوبة بالفداء النبيل، تلك التي أقدم عليها الإمام الحسين براحة ضمير ووعي وطهارة روحية. ولهذه الأسباب كان اليسار معنياً بقضية استشهاد الإمام الحسين، بل إنه في الأربعينات والخمسينات كان القوة الأبرز التي تحتفل به مع جمهرة الناس، وتجد منهم :

1– قرّاء المنابر الحسينية، مثل الشيخ محمد الشبيبي والد حسين الشبيبي الذي أعدم في العام 1949مع فهد (يوسف سلمان يوسف) أمين عام الحزب الشيوعي حينها وزكي وبسيم ويهودا صديّق من قيادة الحزب. وكان "مجلس الشبيبي الحسيني العاشورائي" يكتظ في هذه المناسبة التي يتحدث فيها عن الظلم والظالمين.

2– شعراء المواكب الحسينية، مثل الشاعر عبد الحسين أبو شبع وهو عضو في الحزب الشيوعي منذ العام 1956 واسمه الحزبي "علي"، وكان في الستينات عضو لجنة المثقفين في النجف، حيث كان المشرف عليه السيد صاحب جليل الحكيم، سكرتير محلية الحزب الشيوعي في النجف حينها.

3– القرّاء المحرضون (الرواديد) ومنهم فاضل الرادود، وكان محسوباً على ملاك الحزب الشيوعي، وكان يقرأ القصائد الحسينية ، التي يكتبها أبو شبع وعدد من الشعراء الشعبيين حينها.

4– منظّمو الجمهور، حيث كانت خلايا خاصة تفرّغ لهذا الغرض في عاشوراء والمناسبات الدينية الأخرى، ويتصدّرها بعض أبناء المدينة من الشيوعيين أو امتداداتهم أحياناً من عوائل معروفة، وكان "عزاء محلّة البراق" الأشهر في النجف وشعاراته الأكثر ثورية وتتحسب لها السلطات أكثر من حساب في كل عام.

وكان العديد من العوائل الدينية في النجف على ملاك اليسار والحركة الشيوعية ولديهم نفوذ كبير حتى داخل أوساط الحوزة والمدارس الدينية والمقامات المقدسة، ومن هؤلاء: آل الرفيعي الذي كان منهم الكليدار وآل شعبان ومنهم (سرخدمة، أي رؤساء الخدم) وآل الحكيم وآل الخرسان وآخرين، وهؤلاء جميعهم في حضرة الإمام علي. ولم يكن الأمر يقتصر على عدد من الرجال، بل إن بعض النسوة انخرطن في صفوف الحركة الشيوعية ورابطة المرأة وهن من العوائل الدينية المعروفة.

أما خارج الحضرة العلوية، فهناك آل الشبيبي وآل الجواهري وآل بحر العلوم وآل زيردهام وآل الدجيلي وآل سميسم وآل مطر وآل الخليلي وغيرهم كانوا من المحسوبين على الحركة الشيوعية. وفي مدرسة الخليلي في عكد السلام درس الشيخ حسين مروّة والشيخ محمد شرارة في العشرينات وتحوّلا لاحقاً من الدراسة الحوزوية إلى الحركة الشيوعية، وقال حسين مروّة في استذكاراته: لقد تعرّفت على ماركس في النجف، وذلك حين أعطاه حسين الشبيبي كتاب " البيان الشيوعي" ليقرأه وقال لقد قرأته مرتين، لكن لم أفهم معناه في بداية الأمر، ثم زادت اهتماماته ، حتى أصبح من كبار الماركسيين، لاسيّما حين كتب " النزعات المادية في الفلسفة العربية الإسلامية" أربعة أجزاء..

V

كانت الاحتفالات العاشورائية مهيبة وصبغتها العامة وطنية لتمجيد البطولة والاستشهاد والقيم والمثل الشجاعة والإنسانية، والمقصود بذلك استنهاض الهمم لمقاومة الاستبداد، بشكل مباشر أو غير مباشر، وكان لبعض علماء الدين من المجدّدين دور مهم في تجديد الحوزة العلمية النجفية التي كانت تقليدية وراكدة قياساً لما حصل حولها من تطور، وأذكر هنا على سبيل المثال لا الحصر عدداً من علماء الدين الذين سعوا لتخليص الحوزة ومناهجها من الماضوية التلقينية وفتح نوافذ للجدل والحوار والعلم عليها وفي مقدمتهم: السيد أبو الحسن والشيخ محمد حسين والشيخ علي كاشف الغطاء وعبد الكريم الزنجاني، الذي انشغل بالفلسفة، وكان السيد محمد البغدادي مثار جدل سياسي ومجلسه عامر في النجف لحوارات معمّقة، خصوصاً بعد فتوى السيد "محسن الحكيم" بشأن الشيوعية " كفر وإلحاد" العام 1960؟ومن التيار الجديد كان الشيخ محمد رضا المظفر وشملت المدرسة التجديدية الحديثة الشهيد محمد باقر الصدر والسيد محمد بحر العلوم والسيد مصطفى جمال الدين والشيخ محمد مهدي شمس الدين والسيد محمد حسين فضل الله والسيد محمد صادق الصدر وغيرهم.

وادى اليسار دوراً في تسييس التوجه الديني للدفاع عن مصالح الناس ضد الإقطاع والنظام الملكي وحلف بغداد وللتضامن مع العرب والعروبة، وذلك بنزع ثوب السلطة عن الدين وإبراز الجانب الوجداني الضميري والقيمي الإنساني في قضية استشهاده الحسين لتأكيد الاستعداد للتضحية بأبعادها الرمزية والنفسية وبجانبها الاجتماعي والروحي، ومن جهة أخرى بالاستقامة، لاسيّما باستلهام المُثل النبيلة التي دفع الحسين حياته من أجلها، علماً بأنه واجه عدواً شرساً ومدججاً بالسلاح والمال والمغريات، بأنصار لا يتجاوزن 73شخصاً بينهم 17من أهل بيته، لكنه أصرّ على المواجهة ، لأنها مواجهة للظلم، وهكذا انتصر الحق على الدم والخير على السيف، لأن قضية الحسين ظلّت قائمة ومستمرة ويتغنى بها كل من يريد مواجهة الظلم ، وكما يقول الجواهري :

فداءٌ لمثواك من مضجع
تنوّر بالأبلج الأروع

بأعبق من نفحات الجنا
ن روحاً، ومن مسكها أضوع

ورعياً ليومك يوم »الطفوف«
وسقياً لأرضكَ من مصرع
وحزناً عليك بحبس النفوس
على نهجكَ النيّر المهيع

ولديّ نماذج عديدة لتثوير حركة الجمهور خلال الذكرى العاشورائية والمناسبات الدينية الأخرى سواء ضد حلف بغداد العام 1954– 1955أو ضد تزوير الانتخابات النيابية وحل المجلس العام 1954أو ضد العدوان الثلاثي على مصر أو انتصاراً لثورة الجزائر ،وخصوصاً بعد خطف طائرة أحمد بن بلّة ورفاقه واعتقال وتعذيب جميلة بوحيرد، وسأكتفي بذكر ما حصل بعد العام 1956حيث انتفض العراق ، وخصوصاً بغداد والموصل والحي والنجف، فكانت المواكب الحسينية هادرة بالتنديد بالعدوان الثلاثي ، لاسيّما بعد سقوط شهداء عديدين، وحيث ارتفع اسم عبد الناصر كرمز في مواجهة الامبريالية حينها، فردّدت الفتية اليسارية شعارات تقول :

كالو القائد جمال رواحنه
كله إله
يا هله
نريد مثله نمثله
يا هله
وأمريكا بالدولار
وفرنسا أم العار
والثالثة بريطانيا رمز الخيانة
يا علي – حيدر .

□ باحث ومفكر عربي

الفساد وأثرهُ في التنمية الإقتصادية -2-

حسن الياسري
بغداد

لقد تحدَّثنا في الجزء الأول عن الفساد المصاحب للتنمية الاقتصادية ، والفساد المُعوِّق لها . وسنتكلم اليوم في أثر الفساد في التنمية الاقتصادية . وقبل الولوج في بحث الآثار التي يرتّبها الفساد على التنمية الاقتصادية ، لابدَ من طرح السؤال الآتي : هل يولّد الفساد آثاراً سلبيةً تؤثر في التنمية الاقتصادية فحسب ؟ أو بالإمكان أنْ يكون له بعض الآثار الإيجابية ؟ ولربَّما سيستغرب الكثيرون من طرح هذا السؤال ؛ بالنظر لكون الإجابة عندهم واضحةً ومعروفةً ، وهي أنَّ للفساد آثاراً سلبيةً فقط ، ولا يمكن أنْ تكون له أية آثار إيجابية ؟ بيد أنَّ هذه الإجابة ليست دقيقةً ، إذْ على الرَّغم من أنَّ أغلب الآراء تكاد تجمع على الآثار السلبية للفساد ، وعلى أنه معوِّقٌ رئيسٌ للتنمية الاقتصادية ، وأنَّ وجوده في دَولة ما سيؤثر في اقتصاد تلك الدولة سلبياً ، وسيعوق النمو الاقتصادي فيها ، ويعرقل خطط التنمية . لكنَّ الحقيقة أنَّ ثمة اتجاهات في العالم تجنح للقول بوجود بعض الآثار الإيجابية للفساد. وبناءً على ذلك يغدو مهماً التطرق في هذا المقام إلى هذين الاتجاهين ، الاتجاه القائل بوجود الآثار الإيجابية للفساد في التنمية الاقتصادية ، والاتجاه القائل بعدم وجود مثل هذه الآثار البتة ، بل بوجود الآثار السلبية فقط .

الاتجاه الأول
الآثار الإيجابية للفساد في التنمية الاقتصادية

يذهب هذا الاتجاه إلى أنَّ عدم وجود الفساد إنَّما يكون في ظل النموذج المثالي لمجتمع ما ، وهذا المجتمع غير موجود ؛ ومن هنا فأنَّ الفساد ذاته لا يضرُّ المجتمع دائماً ، ولا يكون مناوئاً للتنمية الاقتصادية ، ولا سيما إذا كان الفساد يستشري في دولة تسود فيها البيروقراطية والموظفون الإداريون غير الكفوئين ، أو إذا كان حكم القانون فيها ضعيفاً ، كما حدث سابقاً في روسيا والصين . وإنَّ وجود مستوىً معينٍ من الفساد في بعض الحالات لا يمثّل عائقاً –بحسب هذا الاتجاه – ، بل على العكس قد يُسهم في تحقيق بعض المزايا الإيجابية على مستوى التنمية الاقتصادية ، التي يمكن إيجازها بالآتي :

1– يُسهم الفساد في تفادي الضوابط التنظيمية المرهقة والجهد القانوني والإداري المصاحب لنشأة الاستثمار.

2– تساعد الرشا التي تُدفع من قبل المستثمرين في التغلب على الحواجز والعوائق التي تضعها بعض الدول أمام التجارة الدولية ؛ ما يعني أنَّ الرشوة تفتح الأبواب أمام الاستثمار الأجنبي ؛ وكل ذلك يُسهم في توفير فرص العمل وتنشيط الحركة التجارية .

3– تخلق هذه الرشا نوعاً من التنافس بين الشركات ، إذ سيتم استبعاد الشركات الأصغر غير القادرة على دفع الرشى الضخمة ، وستبقى الشركات القادرة على ذلك ، وهي الأكبر والأكفأ والأقوى ، وهي أفضل للدولة من حيث التعامل .

4– أنَّ الفساد في هذه الصورة سيُسهم في استغلال الوقت للشركات والأفراد الذين يقيمون للوقت وزناً ، إذْ سيقوم أولئك الذين تكون لديهم تكلفة الفرصة البديلة للوقت مرتفعةً نسبياً بتقديم الرشوة لموظفي الحكومة رغبةً في قضاء مصالحهم والحصول على الموافقات والتراخيص في أقل وقت ؛ ما يعني أنَّ الفساد أسهم بتوفير الوقت لمن ترتفع لديهم قيمة الوقت .

5– يُخفِّف الفساد العبء الضريبي على الوحداتَ الاقتصادية ، الأمر الذي يُشجع النمو الاقتصادي ؛ وذلك لأنَّ الحكومة لن تكون في ظل وجود الرشا والفساد بحاجة إلى زيادة الضرائب لتمويل الزيادة في رواتب الموظفين .كما أنَّ ذلك سيساعد ، بحسب رأيهم ، في رفع المستوى المعيشي للموظفين ذوي الدخول المنخفضة.

6– وأكثر من ذلك كله ، يذهب البعض إلى أنَّ الفساد قد يؤدي إلى تحقيق نوع من التماسك السياسي ؛ وذلك لأنه يوفر للأحزاب والجماعات السياسية الموارد المالية اللازمة التي تمكّنها من البقاء والاستمرار ، ومنْ ثم تتوفر الظروف المناسبة لتحقيق النمو الاقتصادي .

ويخلص هذا الاتجاه إلى ضرورة تنظيم الفساد وجعله فساداً منظَّماً ، إذْ في ظله سيعرف المرء إلى أين يذهب ، وكم يدفع ؛ لغرض الحصول على خدمةٍ أو ميزةٍ ما ؟

بخلاف الفساد العشوائي –غير المنظَّم– الذي يفضي إلى ضياع الكثير من الوقت والجهد والمال . ولعلَّ هذا الاتجاه وما ورد فيه لم يكن ليُلتَفت إليه لولا النهوض الاقتصادي لما يُسمى بـ (المعجزة الآسيوية) وبزوغ نجم بعض دول جنوب شرق آسيا ، مثل إندونيسيا والفلبين وتايلاند . فقد حققت هذه الدول في ثمانينيات وتسعينيات القرن الماضي نمواً اقتصادياً كبيراً على الرغم منْ تفشّي الفساد فيها –في حينه– . وعلى الرَغم من الوجاهة –الظاهرية – التي يتحلّى بها هذا الاتجاه ، والبريق الذي يحتويه ، والمنطق الذي يتبنّاه ، ذلك المنطق الذي قد يبدو معقولاً لدى البعض ؛ لكننا نجزم أنه ليس كذلك ، وأنْ ليس بوسعه الصمود أمام النقود التي يمكن أنْ نوجّهها إليه . وإجمالاً يمكن الرد عليه بمجموعة ردودٍ ، أهمها :

1– إنَّ القول بأنَّ الفساد يُسهم في تفادي الجمود القانوني والإداري قول يفتقر إلى الدقة ؛ وذلك لأنَّ النقص الذي يعتري المنظومة القانونية يُعالَج بتعديلها أو تغييرها وإبدالها بأحسن منها ، وأنَّ الضوابط الإدارية الجامدةٍ ينبغي إعادة النظر فيها وتعديلها بما يصبُّ في خدمة التنمية ، لا فتح الباب أمام الفساد . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى أنَّ هذا الجمودَ إنَّما أوجَده بعض المسؤولين والموظفين لغرض الحصول على الرشى ؛ ما يعني أنَّ الفساد هو أحد أسباب الإفراط في الجمود والبيروقراطية ، إذْ سيتفنّن بعض الموظفين في وضع المزيد من العراقيل ؛ بغية الحصول على المزيد من الرشى والعمولات .

2– إنَّ القول بأنَّ الفساد يخلق نوعاً من التنافس بين الشركات وأنه سيبقي على الشركات الأكبر والأكفأ هو قولٌ مردودٌ ؛ إذْ ليس من الضروري أنَّ هذه الشركات هي التي ستُقدم على دفع الرشى ، بل قد تفعل ذلك الشركات غير الرصينة –كما حدث في بلدنا مثلاً – ، كما أنَّ الفساد سببٌ لإحباط المشاريع الإنتاجية الأكثر جودةً وكفايةً ، ثم أيّ تنافس هذا الذي يخلقه الفساد !!

3– إنَّ القول بأنَّ الفساد يختزل الوقت هو قولٌ غير صحيح أيضاً ؛ ذلك أنَّ الفساد قد يكون سبباً لإطالة الوقت لا اختزاله ، إذْ سيضطر الراشي إلى صرف المزيد من الوقت للتفاوض مع المرتشين ، وغالباً ما يكونون متعددين ،كما أنَّ هناك بعض الدراسات الميدانية التي أجرتها بعض المؤسسات الدولية تؤكد هذه الحقيقة ؛ وهي أنَّ الفساد لا يكون سبباً لاختزال الوقت .

4– ويُردُّ على أنَّ الفساد وسيلةٌ لرفع المستوى المعيشي للموظفين الحكوميين بالقول إنَّ الوسيلة الطبيعية لذلك هي زيادة الرواتب وليس الاعتماد على الفساد . هذا منْ جهة ، ومن جهة أخرى إنَّ متعاطي الفسادَ هم فئةٌ منَ الموظفين وليس جميعهم ؛ ما يعني أنَّ الفساد سيفضي إلى سوء توزيع الدخل ؛ إذْ سيستأثر بهذه المنافع –غير المشروعة– الموظفون الفاسدون الذين يتعاطون الفساد ، دون غيرهم من الموظفين النزيهين.

5– وكذا ليسَ صحيحاً القول إنَّ الفساد يرفع الحواجز أمام التجارة الدولية ، بل على العكس سيكون سبباً رئيساً في نفور الاستثمارات الأجنبية ؛ إذ يتسبَّب في زيادة العبء والكلفة على الشركات الاجنبية الراغبة بالاستثمار.

6– وأمَّا القول بالأثر الايجابي للفساد من حيث تسبّبه في تماسك الجماعات الحزبية وتمويلها فهو قولٌ مردودٌ أيضاً ؛ وذلك بسبب ما ينجم من الفساد من مشكلات سياسية واقتصاديةً واجتماعيةً تعيق عمليةً التنميةً الاقتصاديةً وتعرقل تطوُّر المجتمع ، بل يعدُّ الفساد –على مستوى العالم – سبباً رئيساً لسقوط الكثير من الشخصيات السياسية والأحزاب والحكومات . ويكفيك أنْ تعلم أنَّ دول العالم باتت تُجمع على ضرورة التصدي للفساد ومكافحته ومحاسبة كل المتسبّبين فيه .ولا استبعد أنْ يكون الباعث لهؤلاء المُنظّرين القائلين بالأثر الإيجابي للفساد هو التستُّر على الفساد الذي كان مستشرياً في دول جنوب شرق آسيا والمتزامن مع نهضتها الاقتصادية الكبرى ؛ إذْ راموا ، بحسب تقديري ، عدم إيقاف عجلة التنمية بدعوى وجود الفساد !

وتأسيساً على كل ما تقدم يغدو القول بالأثر الايجابي للفساد قولاً عقيماً لا قيمة له ، لا يستند إلى حجةٍ منطقيةٍ تُسعفه ، ولا يركن إلى ركنٍ وثيقٍ يعضده .